العدد 645 Issue
الثلثاء 17 ذو القعدة 1428هـ
27 نوفمبر 2007 Tuesday - 27 November

الحلقة الخامسة

الطائفية رشد أم طاغوت

الوحدة الإسلامية
وديعة محمد (ص)

سلسلة الطائفية تصدر عن «جمعية التجديد الثقافية»
www.tajdeed.org

بسبب إساءة استخدام رشدها بادت كل الأمم

التنازع الديني شرخ بنية الأمم السياسية والاجتماعية

(لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:256)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:257)

التبين مفردة كررها القرآن الكريم نحواً من مئتين وخمسة وسبعين مرة في تراكيبها المختلفة، وجعلها الهدف من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، والطريق للهداية والتفريق بين الرشد والغي، والأساس لاستحقاق الإنسان الثواب والعقاب، فلا عقاب إلاّ بعد بيان، وهي تمثل الاحترام والتوقير الرباني للإنسان؛ وأنه مخلوق مكرَّمٌ أهلٌ، وقادرٌ على التمييز عن وعي، بعد عملية البيان والتبيين، وبالتالي تحمل نتائج مواقفه الدنيوية والأخروية، وعلى هذا قام الدين كله.

"لا إكراه في الدين" نفي لمطلق الإكراه ابتداء، أيّاً كان نوعه، وعلى أيٍّ وقع، فإذا ما حدث شيءٌ منه فهو خارج المنظومة الدينية الإلهية الحقّة، ثم لا يهم عن أيٍّ صدر، وباسم من أعلن، "قد تبين الرشد من الغي" قد أوضح الله ورسوله وكتابه للإنسان، أين هي طرق الرشد المُوصلة للسلامة، وأين هي طرق الغي الآيلة للضلالة، هذا هو الصراط المستقيم للدين في معاملة الإنسان، "فمن يكفر بالطاغوت" وهو الطغيان والتطرف والتشدد، فلا يكره المؤمنين على الكفر إن كان كافراً طاغوتاً، ولا يكره غير المسلمين على الإسلام والإيمان إن كان مسلماً طاغوتاً، "فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها"، فإن في عدم الإكراه ثباتاً واستمراراً لفاعلية المبادئ واستمرار العمران وعدم البوار والخراب، لأن الطغيان بنفسه سواءً من المؤمنين على غيرهم أو من الكافرين على المؤمنين هو عامل الانفصام لعروة المجتمع وتماسكه، والسماح للحق بعد ما تبين أن يتغلغل في النفوس جيلاً فجيلاً، فانتشار الإيمان في العمران أرجى من توقع انتشاره مع الطغيان، لأن الطغيان عامل هدم ورفض وكراهية، وهو ليس من الدين.

"ويؤمن بالله" فلا يتعدى الحدود التي حددها له بعدم إكراه الناس في الدين، والبقاء على حدود البيان والتبيين، فهذه هي طريق العروة التي لا انفصام لها، وهي المؤذنة باستمرار الدين والعمران والمجتمع في طريق الرشد، ومجانبة طريق الغي شيئاً فشيئاً، وهي السبيل التي اختارها الله سبحانه حينما خلق الإنسان مخيرا بين الطاعة والمعصية، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا، (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) يونس: من الآية99.

هكذا أرادت هذه الآية الكريمة إبعاد الناس جميعاً، مؤمنين وكافرين عن التعامل بالإكراه والطغيان فيما بينهم، وأن سبيل البيان والتبين كفيل بحمد الله بإيصال المؤمنين إلى النور وإخراجهم من الظلمات، وكفيل بفرز من أراد من الناس الكفر عن وعي واختيار، والخروج من النور إلى الظلمات، متحملاً عواقب موقفه الأخروية، حيث لا عقوبات قانونية تشريعية في الدنيا على الإيمان والكفر، اللهم إلاّ العقوبات القدرية الربانية، أو أن يتحول الأمر إلى البغي والعدوان، فأذن الله للمؤمنين بالقتال دفاعا لا عدوانا، وإلى أن يتوقف العدوان وتنقطع مادته.

ولكننا سرنا في الطريق المعاكس للآية تماماً، حينما تساءلنا عن الطاغوت من هو؟ فكان كل شيء يعادينا إلاّ أنفسنا وهي العدو الأكبر لنا، فقالوا هي العُزى، هو الكاهن، هو الشيطان، هو المارد من الجن، هم رؤوس الضلال، هو كل ما عبد من دون الله، هم مردة أهل الكتاب، هو كل صارف عن الإسلام، فكانت الآية عندنا باب إذكاء للعداوة والعدوان، لا باب ابتعاد عنهما.

الرشد هو ما ينبغي للأمم التمسك به، والرشد ليس هو الدين وليس هو الإيمان وإن كان الدين والإيمان يتصفان بالرشد متى كانا كذلك دون تحريف، بل الرشد هو إصابة الوجه الصحيح في الأمر، وهو الطريق الموصل للغاية بالسلامة، والرشيد هو الذي يحسن تقدير الأمور، وألغي على عكسه في كل ذلك.

الرشد هو التفكير الموضوعي العلمي، ثم اتخاذ المواقف على أساس من ذلك، فقد يكون المؤمن راشداً وقد لا يكون، وقد يكون غير المسلم راشداً وقد لا يكون، والرشد يتجزأ، فقد يرشد الإنسان في ناحية ويضل في أخرى على تفاوت، فلا يقال لمن لم يؤمن أنه لا رشد له بالمطلق، بل قد يكون راشداً في الدنيا بأكثر من المؤمنين، الرشد أمر لا ينبغي على أمة من الأمم أن تتخلى عنه، لأن في التخلي عنه دمارها وهلاكها، مهما تمتعت به من المبادئ المعنوية والقدرات المادية، فبمجرد أن تغادر رشدها إلى الغي، فقد بدأت في الانحدار نحو الهاوية.

الطغيان هو أحد أبرز وجوه مخالفة الرشد في الأمم، بالتوجه نحو الإكراه والاستبداد والقهر، سواءً في أمور الدين والعقيدة والفكر، أو في التفاوت في الدرجات الاجتماعية والطبقية، أو في احتكار السلطة والمال والثروة، وبحسب الحق – وكل حق فهو إسلام – كل من مارس طغياناً فهو طاغوت، وهو يسهم وبشدة في انفصام عُرى الدين والقيم والمجتمع، ويقوده نحو الهلاك والتفكك والتشرذم، حتى لو كانوا على أحسن حال من الإيمان قبل ذلك.

إن كل الأمم التي بادت كان ذلك بسبب إساءة استخدام رشدها وطغيانها على مبادئها، فكان أن تسبب لها ذلك في الهلاك والدمار:

فمنهم من أهلكه الجمود والتقليد وترك الإبداع والتجديد، وهذا من أكبر الأسباب في هلاك الأمم، وأجلاها في مفارقة الرشد، حيث تقدس الأمة ماضيها، وتصر على إتباع الآباء دونما تمحيص لصلاح ما كانوا عليه أو فساده، ودونما تحكيم في مناسبته للواقع المستجد أو قصوره عنه، فلا تلبث أن تواجه بالجديد المتطور، والصحيح المناسب فلا تقبله، وتصر على مجانبته أو محاربته، فيكون مآلها الهزيمة والهلاك الفوري أو التدريجي.

ويرصد القرآن مخالفة الرشد بالطغيان في التمييز الطبقي كعامل من عوامل هلاك الأمم، فيصف فرعون مصر بأنه كان طاغية عالياً في الأرض (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) القصص:4.

ومنها الطغيان في التعصب الديني، فالتعصب الديني هو وجه من وجوه الهلاك عبر التفكك والاختلاف الذي قد يكون قومياً أو عنصرياً أو قبلياً وعشائرياً، فالانشقاق الديني هو أحد وجوه الاختلاف والفرقة بين الأمم.

التفرق الديني

وتعدد أسبابه بين المتدينين، فمنهم من يدعي الحرص على نقاء الحقيقة الدينية، فيرفض مكفراً كلَّ من اختلف معه في مفهوم من مفاهيمها، لا بل في تفصيل من تفاصيلها، وهذا هو الوجه الأكبر في اختلاف المتشددين من أهل الأديان، بحيث أن كلّ دين قد بدأ واحداً ثم مع الزمن يتحول إلى فرق ومذاهب متعددة، كلٌ منها لا يرى الحقيقة إلاّ عنده، كما هو الشأن في فرق اليهود والنصارى والمسلمين.

ومنهم من يَدَّعي كذب الآخر وافتراءه على الله، وأنه ليس بدين أصلاً ولم ينزل من السماء، كما قالت اليهود في دين عيسى وكما قالت اليهود والنصارى في دين محمد (ص)، فمع إقرار النصرانية بكل أنبياء بني إسرائيل وكتابهم التوراة، إلاّ أن اليهود رفضوا الإقرار لعيسى بأنه منهم جاءهم مصلحاً ومخففاً، وحال النصارى مع المسلمين كحالهم عند اليهود، فمع أن القرآن الكريم أقرَّ بكل السابقين من الأنبياء ما قبل إبراهيم وموسى وما بعده، إلاّ أن اليهود والنصارى رفضوا الإقرار بنبوة محمد (ص). ومع أن القرآن أقر باليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة وبكل دين يتبع نبياً من السماء، إلاّ أن المسلمين رفضوا الإقرار بهذا القبول، وقالوا إنها أديان منسوخة بالإسلام المحمدي الذي جاء خاتماً للدين كله ومهيمناً عليه، مع أن الحق أن القرآن الكريم لم ينسخ أيّاً من الأديان السابقة لا عقيدة ولا شريعة، وإنما جاء مصححاً لما فسد من عقيدتها وما أدخل في شريعتها كذباً، وما دس في كتبها تحريفاً، وكان بالإمكان لولا التعصب أن يعود جميع أهل أديان السماء إلى عقيدة التوحيد الصافية القائمة على الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، ثم بقاء كل أصحاب شريعة على صحيح شريعتهم وعبادتهم، وهذا مما أقره القرآن والمسلمون لهم حقاً في مجتمع المسلمين.

لقد تفرق أهل الأديان وبغى بعضهم على بعض لتعصبهم وتمسك كل فريق بما عنده، ورفضه المطلق لما عند غيره ثم القيام على حربه وتكذيبه والسخرية منه، والأمر الذي ظل القرآن يرفضه لا من المسلمين وحدهم بل وبين أهل الكتاب أنفسهم، لأنه لا يخرجهم عن دائرة المخاطبين به في شأن دينهم الذي هم عليه، فقال (قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) البقرة: من الآية 113 فالقرآن يرفض هذا الرفض المطلق لكل أصحاب دين للدين الآخر، ويقر بأنها كلها أديان من عنده، ويقول صراحة أن الإسلام المحمدي ليس ديناً جديداً وإنما هو دين الحنيفية الإبراهيمية، قد أقره عقيدة لأهل الأديان (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) الحج: من الآية78 ، بل وأخذ من بعض شرائعه التي ظلت سارية في عرب الجزيرة حتى البعثة، لم يتنكر لذلك بل أقره وافتخر به.

وقد أطلق القرآن على داعي التفرق الديني هذا بغياً، فلم يقرَّهم على ادعاء طلب النقاء أو الاشتباه، بل صرح بها في وجههم جهاراً، أن مردَّ ذلك كله البغي، فقال (وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ) آل عمران: من الآية19.

وعلى المنوال نفسه وإن بشكل أكثر حدة أنقسم المسلمون فرقاً ومذاهب في الإسلام نفسه، وأكثرها من فعل البغي بينهم، وتعصب كل لرأيه، ورفضه الرأي الآخر، رفضاً تبلغ درجته التكفير واستباحة المال والدم والعرض، على خلاف صريح لوصية رسول الله (ص) للمسلمين يوم حجة الوداع والتي أمر أن يبلغها الشاهد للغائب، لعلمه بخطورة الأمر البالغة.

لاشك أن المراد الأول للدين هو وحدة الناس على الحق لو كان ذلك يدرك، أو كان بالإمكان بقاؤه بعد إدراكه، ولكن الأمر لم يكن كذلك ولسبب أو لآخر ظل الناس يختلفون، وسيظلون كذلك، وهذه هي الطبيعة فيهم، ولن يحدث التمييز بينهم من دون هذه القدرة على الاختلاف، وهي من طبيعتهم العقلية أيضا، فالعقل الإنساني خطاء وخلاق في نفس الوقت، والنفس البشرية مجبولة على حب ذاتها والتعلق بما يصدر عنها، فمجمل التكوين النفسي والعقلي للإنسان يجره نحو الاختلاف، ولذلك فلابد من منهجية عقلانية يستفيد بها الناس من ذلك ويتجنبون أكثر ما يمكن من ضرره، ويمكن أن نرصد منهجا من خطوات في سبيل ذلك:

فأولاً: ينبغي السعي نحو عدم الاختلاف أصلاً، وذلك بتجنب دواعيه من البغي والتعصب والجمود.

ثانيا: قبوله كواقع لا مفر منه إن حصل، مع عدم القطع بأن المختلف في الدين ليس على شيء، ليبقى الاختلاف في حدوده التي لا تنفي المشترك المتفق عليه.

نبذ التكفير والرفض

ثم حصر الوسيلة في التعامل معه بالجدال بالتي هي أحسن، وتأجيل حسم الخلاف في الدين لله دنيا أو آخرة، من دون أن ينتج عن ذلك عدوان أو تحقير أو تنجيس أو ما شابه ذلك، وذلك بفصل الأفكار عن أشخاصها، فيكون النقد والرفض والتوهين والتخطئة والتضليل للأفكار دون معتقديها.

إن قسوة أهل الأديان، وظلمهم لبعضهم، تكاد تبلغ قمة السلم في درجات القسوة والحقد والحسد والتحامل، حتى قتلت به بنو إسرائيل زكريا ويحي، وعيسى لولا أن رفعه إليه، وطعنت في شرف أمه، وأوغلت في الغدر بمحمد (ص)، وكذا فعل المسيحيون ببعضهم وبغيرهم لما تمكنوا من السلطان، فما أكثر ما قتلوا وصلبوا وشردوا وقاطعوا وعزلوا من إخوانهم في دينهم لما بغي بعضهم على بعض في شأن المسيح، ولا يزالون على هذا إلى اليوم عوضاً عن حربهم الطويلة للمسلمين، وكذلك فعل المسلمون خلفاء وعلماء وعوام بمخالفيهم في المذاهب، أكثر بكثير من مخالفيهم في الدين، وكثيراً ما حرَّض علماء الدين السلاطين على إخوانهم ونظرائهم، إمعاناً في البغي على مخالفيهم في الفرق أو المذاهب الفقهية والكلامية، وكثيراً ما تضخم مقولة في جزئية دينية لتصبح هي الدين كله، إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها، فلا يكاد عالم أو فقيه أو عارف أو متصوف المعي إلاّ وقد ذاق السجن أو الطرد والتشريد والحرمان والضرب وغيرها من أصناف الأذى، حتى قد تبلغ القتل والصلب بدعوى الكفر والزندقة، ثم يمر التاريخ فيعود ينصف ذلك العالم ويجله ويعظم آثاره، فكأنما هذه الأمة موكلة بالقضاء على عظمائها لتندبهم بعد ذلك.

إن التنازع الديني والفرقة والاختلاف، يظل سبباً من أوضح الأسباب في شرخ بنية الأمم السياسية والاجتماعية، فهو كالصدع الزلزالي الذي بلحظة عين يشطر الأمة شطرين أو أكثر، ثم لا يعود الالتئام بينهما ممكناً مهما بذل من جهد، فحتى لو ضغطتهما الظروف القاهرة فسيظل مكان الصدع مؤشراً على الصدود بينهما، وسيظل يمثل دالة على مواضع عورة في المجتمع وفكره وعقيدته، بحيث يمكن لأي قاصد مغرض أن يعاود صدعه.

بل إن هذا الصدع الديني سيظل يمثل نظرة جديدة، واختلافاً حول المبادئ ذاتها، وتصدعاً في بنية الفكر والعقيدة لا يقف على نقطة البدء، بل يستمر عميقاً خالقا إجابات مختلفة ومتباعدة حول قضايا واحدة، فإن كان اختلاف النصارى بدأ في تحديد طبيعة المسيح، فإنه لم يقف عند نقطة الاختلاف بل امتد عميقاً ليلامس الممارسات اليومية من طرق العبادة والأعياد والمناسبات والتشريعات وغيرها.

إن أمة الإسلام مبادئها قوية، ولها كتاب متفق عليه مصدراً للفكر والعمل، ولكن حينما ظهرت المذاهب والفرق ودب البغي بينهم، تسببت في شرخ هذه الأمة عميقاً، حتى امتازت فرقاً جليّة التصدع، ولقد كانت قضية الاختلاف في الإمامة بعد رسول الله (ص) هي حجر الزاوية في اختلاف المسلمين في البداية، ولكن هل ظل اختلافهم لا يتعداها، كلا بل امتد عميقاً في صدع زلزالي مستمر لا يكاد يمر بقضية إلاّ اظهر فيها رأيين وأكثر، فامتد ليشمل يوميات الناس في عبادتهم وأعيادهم وأحكامهم وزواجهم وإرثهم، فكأنهم لا يهتدون بكتاب واحد يقولون جميعاً بحاكميته على كل قول، بل ظل مثل هذا الكلام مجرد لقلقة يدعيها كل طرف، ولكن الواقع أن المذاهب قد امتلكت الساحة وحكمت على القرآن وتحكمت فيه، فأمَّته ولم تأتم به، وتحكمت به ولم تحتكم إليه، فهو عند كل فريق لا يدل إلا على ما ذهب إليه.

إذا ما علمنا أنهم قد اختلفوا أيام حيويتهم وإبداعهم، آراء ومذاهب، ثم تمسكنا نحن الأسلاف كلٌ بطرف مما اختلفوا فيه فجعلناه مذهباً لنا لا نخرج عنه ولا نحيد، ولا نصرف عقولنا إلاّ في تجميله وتحسينه والدفاع عنه والرد على خصومه

■ البعض يدعي الحرص على نقاء الحقيقة الدينية فيرفض مكفراً كُلَّ من اختلف معه

لقد كانت قضية الاختلاف في الإمامة بعد رسول الله (ص) هي حجر الزاوية في اختلاف المسلمين في البداية، ولكن هل ظل اختلافهم لا يتعداها، كلا بل امتد عميقاً في صدع زلزالي مستمر لا يكاد يمر بقضية إلاّ اظهر فيها رأيين وأكثر، فامتد ليشمل يوميات الناس في عبادتهم وأعيادهم وأحكامهم وزواجهم وإرثهم